مجتمع الهمذاني

من خلال مقاماته

بحث يحلل المقامات ويستكشف من
ورائها صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

- ٣ -

أخبار المجون في التاريخ :

كان المجون يعيش إلى جانب الورع والزهد في مجتمع واحد ، وقد رأينا أن لا عجب في ذلك ، وأنه تناقض معقول ؛ إن الزهد إلى جانب المجون لايعني أكثر من أن قوماً متديّنين رأوا طغيان الماجنين وتجاوزهم حدود العقل أو الطبع ، فخافوا على أنفسهم فتنة الغيّ وفرّوا بدينهم إلى الله إنقاذاً لنفوسهم ، وتحريراً لها من عبودية الشهوة والمتعة .

وليست أخبار المجون في كتب التاريخ بسرٍّ مصون ولا حديث مكتوم ، بل لقد وجدت هذه الأخبار خاصة من يبحث عنها ويُعنىَ بنشرها على الناس ، إنها وجدت في عصرنا هذا من يختار أمثلة منها ، وينفخ فيها من خياله ، تهويلاً وتضخيماً ، وينشرها في كل مناسبة ، بغية التشويه لقداسة أيام ماضية ، أو بغية الإفساد لحاضر يغريه بالتقليد ، أو يغويه بالمثَل السيّء . وأي تشويه أو إفساد هذا الذي بلغ من نفوس أبناء الجيل « الصاعد » أنه إذا أراد أحدهم أن يتخذ مثلاً لخلاعة ملك ماجن ، أو فجور ثري مستهتر ، اتخذه من أكرم شخصيات تاريخنا ، فمثّل بالخليفة هارون الرشيد ، مغفلاً ما قاله عنه التاريخ من أنه كان يحجّ سنة ويغزو أخرى ، وأنه كثيراً ما كان يبكي بين أيدي الوعّاظ والناصحين .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد غلب على عقول الجيل مانفثته الشياطين ، وما زينته النفوس المغرضة حتى انمحت الأمثولة الصالحة والقدوة الحسنة . وأي فجيعة أبلغ من فجيعة الأمة بتاريخها ؛ حين يفتح أبناؤها عيونهم فإذا الذي كان من أبطال الجهاد والتقى مَثَل للخلاعة والاستهتار والفجور ؟

نعم إنه يجب أن نعرف خطأ الحاكم وانحراف الراعي ، ليؤتي تدريس التاريخ أُكُلَه ويحقق غايته ؛ لنعرف ماوقع السلف فيه من الخطأ فنجتنبه ، ونرى الباب الذي تسرّب منه الانحراف فنسدّه ، ولكنه شتان ما بين الذي ينشر أمام أجيالنا صفحات المجد الماضي لتكون لهم في أبطالها أسوة ، أو ينشر أمثلة من أخطاء الحكام وسوء تصرّفهم ، إنْ في السياسة أو في الحرب أو في الأخلاق ، ليبصّر بنتائج ذلك وما كان له من آثار في حياة دولهم وشعوبهم ، وبين من ينشر الماضي فلا يقف إلا على المخازي والآثام .

ونعود إلى أهل القرن الرابع لنقول إنهم عرفوا اللهو والمجون ، وكانت لهم حلقات يجتمعون فيها على الغناء والوتر والشراب والسمر ، وأن ذلك كان معروفاً بينهم ، وحسبك أن ترى مثالاً من حياة الترف والتبذير في أخبار المقتدر (ت ٣٢٠ هـ) وأخبار الوزير المهلبي (ت ٣٥٢ هـ) [1] ، وأن تسمع إلى عضد الدولة ينشد :

ليس شرب الكأس إلا في المطر ... وغناء من جوارٍ في السحر
غانيات سالبات للنُّهى ... ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها ... ساقيات الراح من فاق البشر

على أنه ليس من غرضنا في هذا المقام أن نستعرض ما جاء عن مجالس اللهو والطرب في قصور الأمراء ومجالس الأغنياء ، ولكن الذي نحب أن ننبه عليه هو أن بديع الزمان الهمذاني قدّم لنا في مقاماته ما يشبه أن

(١) انظر يتيمة الدهر ٢ : ١٠٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يكون صورة لهذا الجانب العابث من الحياة ، وهو لم يقصر حديثه على طبقة الأمراء والأغنياء ، وإنما تعدّى هؤلاء ، كما تعدّاهم في سائر أحاديثه — إلى طبقات أخرى من أهل مجتمعه ؛ لقد حدّثنا الهمذاني عن شباب القوم ومجالس لهوهم وعبثهم ، كما حدثنا عن الوعّاظ وما كان في وعظهم من نصح وإرشاد وحثّ على الزهد ... بل وما كان في أحاديث بعضهم أيضاً من مداهنة واحتيال وخداع .

وقد كثر الوعظ في المقامات ، وكثر اتخاذه وسيلة للكدية أو الخداع حتى أصبحنا نعجب إذا رأينا في مقامة من المقامات وعظاً صادقاً ليس للمقامة غرض آخر سواه ، على غير ما تعوّدنا في جميع المقامات . وذلك هو الوعظ الذي نسمعه في المقامة الأهوازية حيث نفاجأ بجواب الواعظ للذين سألوه في آخر وعظه : ما حاجتك ؟ فقال : « أطول من أن تُحدّ وأكثر من أن تُعدّ . قلنا : سانح الوقت . قال : ردّ فائت العمر ، ودفع نازل الأمر . قلنا : ليس ذلك إلينا ، ولكن ما شئت من متاع الدنيا وزخرفها . قال : لا حاجة لي فيها وإنما حاجتي بعد هذا أن تَخِدُوا(١) أكثر من تَعُوا(٢) . »

إنها فلتة من أبي الفتح الإسكندري الواعظ ، وإن لم تكن غريبة عن المجتمع الذي يصوره أدب الهمذاني .

المجون في المقامات : وكما حدثنا بديع الزمان عن الجانب الزاهد في المجتمع ، كذلك حدثنا عن الجانب الآخر ، جانب اللهو والمجون ، ولم يُغفل تصوير الحياة العابثة اللاهية ، بل أخذ بأيدينا إلى بعض مجالس القوم ، وأطلعنا على ما يدور فيها من أسباب اللهو والمتعة ، وهو لا يقف بنا وقفة التاريخ أمام أبواب الخلفاء ، وقصور الأمراء ، أو يمرّ ببعض هذه الأخبار

(١) الوخد : ضرب من السير السريع .
(٢) المقامة الأهوازية : ٦٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مرور المؤرخ يشير ويلمح ، ولكنه يفصّل ويصرّح ، بل يلج بنا مجالس القوم وحاناتهم ، ويرفع لنا الستار عن اجتماعهم على الخمرة والوتر .

قال عيسى بن هشام : « جعلت النهار للناس والليل للكاس ، واجتمع إلي في بعض لياليّ إخوان الخلوة ، ذوو المعاني الحلوة ، فما زلنا نتعاطى نجوم الأقداح ، حتى نفد ما معنا من الراح ، واجتمع رأي النُدمان على قصد الدنان فأسلمنا نفسها وبقيت كالصدف بلا درّ أو المصر بلا حرّ ، ولما مسّتنا حالنا تلك دعتنا دواعي الشطارة إلى حان الخمّارة والليل أخضر الديباج مغتلم الأمواج [1]. »

وهو لا يكتفي بأن يجمعنا إلى « إخوان الخلوة » وأن يشير إلى قصدهم حان الخمّارة وإنما يمضي بنا ـ لنرى كيف انقضت تلك الليلة ـ فيقول : « ولما حشرج النهار أو كاد ، نظرنا فاذا برايات الحانات أمثال النجوم في الليل البهيم ، فتهادينا بها السرّاء وتناشرنا بليلة غرّاء . ووصلنا إلى أفخمها بابا ، وأضخمها كلابا ، وقد جعلنا الدينار إماما ، والاستهتار لزاما ، فدفعنا إلى ذات شكل ودلّ ووشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها ، فأحسنت تلقّينا وأسرعت تقبّل رؤوسنا وأيدينا ، وأسرع من معها من العلوج إلى حطّ الرحال والسروج وسألناها عن خمرها فقالت :

خمر كريق في العذوبة واللّذاذة والحلاوة
تذر الحليمَ وما عليه لحلمه أدنى طُلاوة

كأنما اعتصرها من خدّي أجداد جدّي ، وسربلوها من القار بمثل هجري وصدّي ، وديعة الدهور وخبيئة جيب السرور ، وما زالت تتوارثها الأخيار ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أرج وشعاع ووهج لذّاع ، ريحانة النفس وضَرّة الشمس . فتاة البرق عجوز المَلَق ، كاللهب

(١) المقامة الخمرية : ٢٤٤ واغتلم : هاج .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في العروق ، وكبرد النسيم في الحلوق ، وصباح الفكر وترياق سمّ الدهر ، بمثلها عزّر الميت فانتشر ، ودووي الأكمه فأبصر .

قلنا : هذه الضالّة وأبيك . فمن المطرب في ناديك ؟ ولعلها تشمشع للشّرب بريقك العذب ! قالت : إن لي شيخاً ظريف الطبع طريف المجون ، مرّ بي يوم الأحد في دير المِرْبَد فسارّني حتى سرّني ، فوقعت الخلطة وتكررت الغبطة ... وسيكون لكم به أنس وعليه حرص (١) .. » .

فأي شيء فاتنا بعد هذا الوصف من مجالس الخمرة ؟ لقد رأينا الحانة ودخلناها وعرفنا بابها وكلبها ومستخدميها من العلوج ، ورأينا صاحبتها ذات الشكل والدلّ والوشاح المنحلّ ... وتخيّلنا خمرتها وعتقها ولونها ، وعرفنا مؤنس الندمان ومطربهم ...

بل إن الهمذاني استطاع في المقامة أن يصوّر لنا الجانبين جميعاً ؛ وذلك حين رسم صورة الشباب المنكبين على الخمرة ، وصورة الأتقياء المحافظين على الصلاة في مساجدهم ، وجعل المصلّين يتألّبون على المخمورين بعد أن فاحت منهم ريح الخمرة في المسجد ، قال ابن هشام : « ... واجتمع إليّ في بعض ليالي إخوان الخلوة ذوو المعاني الحلوة ، فما زلنا نتعاطى نجوم الأقداح حتى نفد مامعنا من الراح ، واجتمع رأي الندمان على فصد الدنان فأسلنا نفسها وبقيت كالصدف بلا درّ أو المصر بلا حرّ ، ولما مسّتنا حالنا تلك دعتنا دواعي الشطارة إلى حان الخمّارة ، والليل أخضر الديباج منتظم الأمواج . فلما أخذنا في السَّبْح ثوّب منادي الصبح ، فخنس شيطان الصبوة وتبادرنا إلى الدعوة ، وقمنا وراء الإمام قيام البررة الكرام ، بوقار وسكينة وحركات موزونة ، فلكل بضاعة وقت ولكل صناعة سمت ، وإمامنا يجدّ في خفضه

(١) المقامة الخمرية : ٢٤٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورفعه ، ويدعونا بإطالته إلى صفعه ، حتى إذا راجع بصيرته ورفع بالسلام عقيرته ، تربّع في ركن محرابه وأقبل بوجهه على أصحابه ، وجعل يطيل إطراقه ويديم استنشاقه ، ثم قال : أيها الناس ، من خلط في سيرته وابتُلي بقاذورته ، فليسمه دِيماسه (١) دون أن تنجسّنا أنفاسه ، وإني لأجد منذ اليوم ريح أم الكبائر من بعض القوم ، فما جزاء من بات صريع الطاغوت ثم ابتكر إلى هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع وبدابر هؤلاء أن يقطع ، وأشار إلينا فتألّبت الجماعة علينا حتى مزّقت الأردية ودميت الأقفية ، وحتى أقسمنا لاعدنا وأفلتنا من بينهم وما كدنا (٢) » .

فجمع الهمذاني في هذه المقامة بين أهل المسجد وأهل الحانة ، وبين من في المحراب يركع ويسجد ومن مع الدنّ يقوم ويقعد ، فكان منصفاً لهؤلاء وأولئك جميعاً ، وأعطى كلاً منهم حقه من الوصف ، فكانت مقامته ممثلة لطائفتين في مجتمعه ، وهما طائفتان ما زالتا موجودتين إلى اليوم جنباً إلى جنب في كل مجتمع .. وكانت أخبار الهمذاني عن الوعظ والزهد واللهو والمجون لاتقلّ وضوحاً عن أخبار التاريخ إن لم تكن أكثر تفصيلاً وتصويراً في بعض الأحيان .

عقليّة العامة : أما عقلية القوم في القرن الرابع فقد حدثنا عنها التاريخ بما يرفع رأس أمتهم فخراً واعتزازاً ؛ كانت عقلية جبّارة نشيطة مبدعة خاضت كل علم ، وألّفت في كل فنّ ، واستوعبت ما ورد إليها من قرائح العقليات الغريبة عنها كالفارسية واليونانية والهندية . . . وحسبنا أن نتذكر أعلام الفكر الإسلامي في القرن الرابع لنعلم مدى ماوصلت إليه تلك العقلية من نضج ورقيّ . ولكن هل القوم كلهم علماء ؟ وهل القوم كلهم ذوو عقليات

(١) الديماس : الكن ، ويعني به البيت .
(٢) المقامة الخمرية : ٢٤٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

راقية تسبر الأغوار ؟ لا بدّ من ترك العلماء جانباً للبحث عن الصّفات العقلية للسّواد الأعظم من الناس .

إيمانهم بالأحراز : لعل من أبرز خصائص « عقلية العامة » سرعة التصديق؛ فهم يؤمنون بادي الرأي ، ويصدّقون بسرعة عجيبة كل ما يقال لهم ، كما رأينا في الحديث عن دجل بعض الوعاظ ، واتخاذهم الوعظ مطيّة لبلوغ المآرب الخاصة والغايات الدنيا ، وكيف كان الناس يصدّقونهم ويقبلون عليهم . ولعل لنا في القامة الحرزية مثالاً أوضح لتبيان ما كانت عليه العامة من سرعة الإيمان وسلامة الطويّة ، ومن أسرع إيماناً وأسلم طوية ممّن يعتقد أن حُرزاً يُنجي من الغَرَق ؟ وليته كان حرزاً متصلاً بأسباب الدين ، أو كان آيات من القرآن الكريم ، إذاً لكان للقوم عذرهم لما يوحي به الإيمان بالدين من الاطمئنان ، وما يلقيه في النفس من السكينة ، ولكنه حرز مصون بالديباج والعاج ، يتلقّاه القوم مؤمنين ، قبل أن يعلموا حقيقة ما يحتويه ! قال عيسى بن هشام يصف عودته من السفر : « ولمّا ملكنا البحر وجُن علينا الليل ، غشيتنا سحابة تمدّ من الأمطار حبالاً وتحوز من الغيم جبالاً ، بريح ترسل الأمواج أزواجاً والأمطار أفواجا ، وبقينا في يد الحَيْن بين البحرَيْن ، لا نملك عدّة غير الدعاء ، ولا حيلة إلا البكاء ولا عصمة غير الرجاء .

وطويناها ليلة نابغية ، وأصبحنا نتباكى ونتشاكى ، وفينا رجل لا يخضلّ جفنه ولا تبتلّ عينه ، رخيّ الصدر منشرحه نشيط القلب فرحه ، فعجبنا والله كل العجب ، وقلنا : ما الذي أمّنك من العطب ؟ فقال : حرز لا يغرق صاحبه ، ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت . فكلّ رغب إليه وألحّ في المسألة عليه . فقال : لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم ، فنقدناه ما طلب ووعدناه ما خطب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج فيها حُقّة عاج ، قد ضمّن صدرها رقاعا ، وحذف كل واحد منا بواحدة منها »(١) والطريف أن يستمر خداعه وأن ينقدوه ما وعدوه بعد سلامتهم من الغرق ، « فلما سلمت السفينة وأحلّتنا المدينة اقتضى الناس ما وعدوه فنقدوه . » ! !

إيمانهم بشياطين الشعر : ويحدثنا الهمذاني في مقامة أخرى عن إيمان بعض الناس بشياطين الشعر ، أولئك الذين يوحون إلى الشعراء بأشعارهم ، وليس بعيداً أن تكون لهذه الأسطورة الجاهلية ذيول في أذهان بعض الناس ؛ ففي المقامات أن عيسى بن هشام يدهش حين يسمع أن قصيدة :

بان الخليط ولو طووعت ما بانا وقطّعوا من حبال الوصل أقرانا

ليست لجرير ، وإنما هي لرجل آخر هو أبو مُرّة . . ، وتجري بينها محاورة يتهم ابن هشام فيها أبا مرة بالانتحال ، فيكشف أبو مرّة أمره ويقول : « وكنت أكتمك حديثي وأعيش معك في رخاء لكنك أبيت فخذ الآن : ثما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبو مُرّة ، قال عيسى بن هشام : ثم غاب ولم أره . »(٢)

ولسنا نريد استقصاء الأمثلة الدالة على خصائص عقلية العامة ومعتقدهم ، إذ سيمرّ بنا كثير من ذلك حين نتحدث عن خصائص القوم عامة وسذاجتهم وحين نتحدث عن الكدية والمكدين وما كانوا ينصبون للقوم من شراك وغير ذلك مما يدل على النفس السليمة والعقل الساذج ، وللكدية والمكدين في المقامات حديث طويل سنخصّه ببيان من التفصيل .

---

(١) المقامة الحرزية : ١٢٤ .
(٢) المقامة الإبليسية : ١٩٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لغتهم : لغتهم أو كلامهم لا نعني به هنا أسلوبهم ذلك الذي عرفناه في إنشاء القرن الرابع وأدبه ، وإنما نريد به ما كان يدور على ألسنتهم من حكاية مرتجلة وحوار غير مشذّب ، وكلام عام وشتائم .. مما لم يذكره التاريخ ؛ لأنه لم ينطق به عظيم ، ولم يحفظه الأدب ، لأنه بعيد أحياناً عن « الأدب » .

أما الحكايات والقصص فإن أردنا معناها أو محتواهـا فهو في المقامات واضح جليّ ، وقد رأينا ذلك حين استعرضنا موضوعات المقامات ، وأما إن أردنا منها أسلوبها ، وهو الذي كنا نودّ معرفته ، فلن تفيدنا المقامات في معرفته شيئاً لأن صاحبها كما نعلم كتبها بأسلوبه المصطنع ، وأنطق الأشخاص فيها بكلامه المسجّع . على أن البديع حاول أن يُنطق كل شخص بما يناسب مقامه ، فكان لصاحبة الحانة أسلوب ، وللحمّاميّ أسلوب ، وللسّوادي أسلوب ..

شتائمهم : وأما شتائمهم فالهمذاني لا يخجل من نقلها إلينا ، وهي ليست أقل قذارة من شتائم رعاع اليوم إن لم تفقها إفحاشاً وإقذاعا .

وقد مرّ معنا أن في المقامات ما يستحي الأديب من قراءته ويخجل من شرحه وأن الكتّاب أغفلوا المقامة الشامية وبعض المقامة الرصافية لما فيها من بذاءة وإفحاش(١) .

وقد يكتفي الهمذاني في بعض الأحيان بالإشارة إلى السباب والشتم دون توضيح أو تفصيل ، كأن يقول : « فعمد إلى أعراض يسبّها . »(٢) وقد يصرّح ويفصّل كما فعل حين نقل ملاسنة جرت بين اثنين من المستخدمين في أحد الحمّامات(٣) وانتهت بانسلال عيسى بن هشـام وهو « يسبّ الغلام بالمضّ والمصّ » . بل إن بديع الزمان يجعل من إحدى مقاماته مسرحاً

(١) مقدمة المقامات : ص ٧ وانظر ما سبق في ص : ٦٠٥ العدد ٣ المجلد ٤٣ .
(٢) المقامة الأرمينية : ١٩٧ .
(٣) المقامة الحلوانية : ١٨٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لاثنين من أبطال الشتيمة يتنافسان فيها ويأتيان بكلام اضطررنا إلى حذفه من المقامة ؛ وذلك في المقامة الدينارية التي يعد عيسى بن هشام فيها أن يهب ديناراً لأمهر الرجلين في السبّ والشتم وقال : « ليشتم كل منكما صاحبه فمن غلب سلب ومن عزّ بزّ . »(١) وكانت منافسة حامية بين أبي الفتح الاسكندري الذي قذف حممه سائلة وصلبة ، حارّة وباردة . . وبين خصمه الذي قذفه بسيل دافق من السباب المرّ والشتم القبيح حتى عجز عيسى بن هشام عن تفضيل أحدهما على الآخر ، فقال : « فوالله ما علمت أي الرجلين أوثر ، وما منها إلا بديع الكلام عجيب المقام ألدّ الخصام ، فتركتها والدينار مشاع بينها وانصرفت وما أدري ما صنع الدهر بهما . »(٢)

على أننا إذا لم ننقل الكثير من كلامهم لفحشه ، فلا بدّ لنا من الإشارة إلى أنهم ما كانوا يجدون في قوله واستعماله شيئاً من الحرج ، وكما قيل : لكل مقام مقال ، فكذلك لكل يوم كلام . وليس أدلّ على شيوع اللفظ المستهجن والكلمة الفاحشة على ألسنتهم وعدم استنكارهم لها من استعمال أكابرهم لها وصدورها عنهم ، يؤيد ذلك ويؤكده ما نقله الثعالبي من هجاء الصاحب بن عباد لخصومه(٣) ، ومن كلام الصابي في الهجاء أيضاً(٤) ، فإذا كان أمثال الصاحب والصابي لا يترفعون عن اللفظ البذيء والمعنى السافل فلا عجب في قذارة شتائم العامة وفحشهم في السّباب .

هيئاتهم : قد لا يكون هناك اختلاف في الهيئات العامة للناس بين عصر وعصر أو بين مكان ومكان ، ولكن الهيئات الخاصة واللابس تختلف باختلاف

(١) المقامة الدينارية . ٢٢٥ .
(٢) المقامة الدينارية .
(٣) يتيمة الدهر ٣ : ٢ ١ .
(٤) يتيمة الدهر ٢ : ٦٣ ـ ٦٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأزمنة والأمكنة ، وباختلاف المراتب والأعمال . ونحن نستطيع الآن أن نميز شعباً من شعب من أشكال أفراده أو لباسهم أو لباس رؤوسهم ، بل ربما نستطيع أن نستدل على شيء من أذواقهم إذا استطعنا أن نعرف أنواع ثيابهم وألوانها . ولننظر الآن كيف كانت هيئات الناس الخاصة ؟ وكيف كانت ملابسهم في المجتمع الذي عاش فيه الهمذاني ؟

الحق أننا لانجد في المقامات صورة كاملة للهيئات والملابس في ذلك العصر ، وقد كنا نودّ لو عني الهمذاني بوصف الثياب وأشكالها والأردية وألوانها ... أكثر مما فعل ، إذاً لكانت عندنا صورة واضحة ملوّنة لإنسان ذلك العصر من تاريخنا . على أن أبا الفضل لم يغفل ذلك إغفالاً تاماً وإنما قصّر فيه ، وما عليه في ذلك لأنه لم يكن يريد من مقاماته إذ ذاك ما نريده نحن منها اليوم .

لقد ذكر الهمذاني في مقاماته كثيراً من الصفات الخارجية لأناس مختلفين من قضاة ، كانوا يضعون على رؤوسهم قلانس كبيرة كالدنان ، وكان بعضهم يدير فضل العمامة من تحت حنكه كقاضي نيسابور الذي ذكره عيسى بن هشام فقال « اجتاز بي رجل قد لبس دنّيّة وتحنّك بسنيّة (١) . » وقد يفصّل أكثر من ذلك في موضع آخر فيقول : « وقد لبس دنّيّته وسوّى طيلسانه وقصّر سباله وبيّض لحيته (٢) ... » . وقد يذكر صفات عامة تكفي لبيان شخصية صاحبها من خلال مظهره ، كأن يقول عن أحد الشباب إنه في « زيّ ملكي » ليدلّ بذلك على أنه ليس من رجال العمائم بل هو ثريّ أنيق .

(١) المقامة النيسابورية : ٢٠٧ .
(٢) المقامة النيسابورية : ٢٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويبدو أن العمامة هي لباس الرأس الشائع عندهم ، فلقد مرّ ذكرها في أكثر المقامات وضعتها شخصيات مختلفة ، والفرق بين الأشخاص إنما هو ، بالنسبة إلى العمامة ، في شكلها أو حجمها ... وأما لباس القدم فالخُفّ ، وكثيراً ما ذكره وذكر حداثته أو قدمه ... وذكر بعض مايتصل به من عادات ، كإخفاء السكّين فيه وذلك حين قال في المقامة الأسدية : « ثم دنا إليّ لينتزع الخفّ ومددت يدي إلى سكّين كان معي في الخفّ (١) .

وأما أهل اليسار فهم من الثياب في « حِبَر وشاء » (٢) ، وكثيراً ماوقف عندهم ووصف آثار النعمة عليهم .

ويمرّ الهمذاني بأصحاب الصناعات المختلفة فلا يغفل عن إلقاء نظرة سريعة بجملة تبيّن الشكل أو ترسم الخطّ العريض من الصورة ، فها هو ذا حلاّق « لطيف البنية مليح الحلية في صورة الدميـة » (٣) . وتلك صاحبة حانة « ذات شكل ودلّ ، ووشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها (٤) » ..

وأما المكدّون فقد كان نصيبهم في المقامات أكبر من نصيب غيرهم ، وذلك لكثرة ما تعرّض الهمـذاني لهم ولأخبارهم ، وهو يقدّم لنا صوراً مختلفة لهم ؛ فمنهم من « لفّ رأسه ببرقعٍ حياءً ، ونصب جسده وبسط يده ، واحتضن عياله وتأبّط أطفاله ، وهو يقول بصوت يدفع الضعف في صدره والحرَض في ظهره (٥) .. » ومنهم من « يخبط الأرض بعصـا على إيقاع

(١) المقامة الأسدية : ٤١ .
(٢) المقامة البصرية : ٦٧ .
(٣) المقامة الحلوانية : ١٨٣ .
(٤) المقامة الخمرية : ٢٤٨ .
(٥) المقامة الأزاذية : ١٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لايختلف ... وهو حُزْقَة كالقَرَنْبَى أعمى مكفوف، في شملة صوف، يدور كالخدروف، متبرنساً بأطول منه، معتمداً على عصا فيها جلاجل، يخبط الأرض بها على إيقاع غنج، بلحن هزج، وصوت شج من صدر حرج .. »[1] ومنهم « ذو طِمرين قد أرسل صِوانا، واستتلى طفلاً عُريانا، يضيق بالضر وسعه، ويأخذه القرّ ويدعه، لا يملك غير القشرة بردة . . »[2] ومنهم من « طلع برُكوة قد اعتضدها، وعصا قد اعتمدها، ودنيّة قد تقلّسها، وفوطة قد تطلّسها، يرفع عقيرته . . »[3]

ومن المكدّين طائفة يسير أفرادها في الطرقات والأسواق مجتمعين وحدهم الفرَض، يتقدّمهم واحد منهم « قد لفّوا رؤوسهم وطلوا بالمغرة[4] لبوسهم، وتأبّط كل واحد منهم حجراً يدقّ به صدره، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ويدعو ويجاوبونه[5] . »

والهمذاني لا ينشغل بأزياء القضاة والأثرياء وأصحاب المهن والشحّادين عن سواهم؛ فالقضاة بقلانسهم الكبيرة وأثوابهم الفضفاضة ولحاهم البيضاء ...، وأصحاب الصناعات وما اتخذ كل منهم من ملبس يلائمه . .، والشحّادون وهزالهم وأطمارهم وعصيّهم وبراقعهم . . .، كل ذلك لا يشغل أبا الفضل عن تصوير أهل الريف أو السّواد حين يغدون إلى المدينة وقد حملوا ما تنتجه أراضيهم على دوابّهم ليبيعوه في أسواق بغداد، ويعودوا بالفضلات سماداً للأرض...، ومن يقرأ المقامة البغدادية يتعرّف إلى سواديّ من هؤلاء، ويراه وقد بلغ

(١) المقامة المكفوفية : ٨٣ .
(٢) المقامة البحارية : ٨٧ .
(٣) المقامة الأذربيجانية : ٤٩ .
(٤) المَغْرة : الطين الأحمر .
(٥) المقامة الساسانية : ١٩٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

به الجهد والمشقة ، وبدت عليه سيماء البساطة والسذاجة ، بل يرى جانباً من صورته وطرفاً من إزاره .. ويرى تلك العقد التي انعقدت على المال في طرف الإزار على نحو ما يفعل بعض أهل الريف في عصرنا الحاضر ؛ إنه « سوادي يسوق بالجهد حماره ، ويطرّز بالعقد إزاره[1] » ، وأما ابن هشام فلم يكن « معه عقد على نقد[1] » .

وأما إذا كان الريفيّ من ذوي الغنى واليسار ، فإن عُقد الإزار لا تكفي لحفظ المال وإنما يضعه في جراب أو كيس كذلك الذي أقبل ومعه « جراب دنانير[2] » ، أو الذي قبض من كيسه قبضة الليث[3] ، أو الذي أحال المشكلة إلى الكيس وقال : يحلّ الكيس ما شئت[4] .

وهكذا صوّر لنا الهمذاني بعض أفراد مجتمعه ومرّ بهم من أمامنا بأشكالهم وملابسهم ...

٢ ــ المجالس الأدبية ــ المناظرات والجدل ــ القصص

أخبار المناظرات في كتب التاريخ : من أبرز مظاهر النشاط الفكري في القرن الهجري الرابع تلك المناظرات والمحاورات التي كان القوم يعقدونها ويخصونها بنصيب وافر من اهتمامهم ووقتهم . ومن تلك المناظرات ما كان متصلاً بالأدب ؛ نثره وشعره ، ألغازه وأحاجيه ، ومنها ما كان ذا صلة بالعقائد والمذاهب الدينية ..

(١) المقامة البغدادية : ٦٤ .
(٢) المقامة الصيمرية : ٢١٥ .
(٣) المقامة الكوفية : ٣١ .
(٤) المقامة السجستانية : ٢٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد كان القرن الرابع فترة صراع عنيف بين أفكار كثيرة وفرق متعددة ، والتاريخ إنما يذكر من هذه المناظرات ما كان في حضرة خليفة أو وزير ، أو ما اشترك فيه واحد من هؤلاء وأولئك ، أو ما ترك أثراً يدعو إلى ذكره ، ويغفل ما دون ذلك .

وفي كتب الأدب وتراجم الأدباء ما يدل على أن المناظرات كانت أمراً منتشراً بينهم ، وأنها لم تكن في بعض الأحيان لغير الطموح إلى الشهرة وشهوة النصر ، وأن المتناظرين كثيراً ما كانوا يحشدون لها الأنصار والأتباع على نحو ما نرى اليوم في المباريات الرياضية ، بل لقد كانت تلك أيضاً مباريات رياضية إلا أن السلاح المتبارَى به كان لساناً مبيناً ولفظاً معبّراً وفكراً سديداً .

ومن تلك المناظرات المشهورة في التاريخ مناظرة الكسائي وسيبويه في بغداد حول مسألة من مسائل النحو(١) . والمناظرات التي دارت حول مشكلة خلق القرآن . ولعل من أطرفها تلك التي دارت بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متّى بن يونس في المفاضلة بين النحو والمنطق(٢) ، وقد جرت سنة ٣٢٠ هـ(٣) . ومن تلك المناظرات ما دار بين الخوارزمي وبديع الزمان ممّا سبق ذكره(٤) .

ولنسأل هل استطاع الهمذاني أن يقدم لنا في مقاماته صورة عن ذلك الصراع الفكري الذي دار في مناظرات القوم الأدبية والمذهبية ؟

---

(١) وهي المسألة المعروفة في النحو باسم المسألة الزنبورية . انظر مغني اللبيب ١ : ٩٣ .
(٢) تجد أخبار هذه المناظرة في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ١ : ١٠٧ ـ ١٢٨ .
(٣) لأنه كان عمر السيرافي أربعين سنة ، ومولده في سنة ٢٨٠ هـ . وانظر الامتاع والمؤانسة ١ : ١٢٨ .
(٤) انظر ص : ١٣٠ وما بعدها من الجزء ١ المجلد ٤٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المناظرات الأدبية في المقامات : أما المناظرات الأدبية في المقامات فمنها ما يتصل بأسلوب الهمذاني وفنّه في التلاعب بالألفاظ ، كتلك التي تدور حول الأحاجي ، ومنها المقامة الشعرية التي حدثنا فيها عيسى بن هشام فقال « كنت ببلاد الشام وانضمّ إليّ رفقة ، فاجتمعنا ذات يوم في حلقة ، فجعلنا نتذكر الشعر ، فنورد أبيات معانيه ونتحاجى بمعاميه . . . » وكان بينهم فتى سألوه وسألهم فقـــال « أين أنتم من تلك الأبيات وما فعلتم بالمعمّيات ، سلوني عنها . فما سألناه عن بيت إلا أجاب ولا عن معنى إلا أصاب . . . ثم عطف علينا سائلاً وكرّ مباحثاً فقال : عرّفوني بيت شطره يرفع وشطره يدفع ؟ وأي بيت كله يصفع ؟ وأي بيت نصفه يغضب ونصفه يلعب ؟ وأي بيت كله أجرب ؟ وأي بيت عروضه يحارب وضربه يقارب ؟ وأي بيت كله عقارب ؟ وأي بيت سمُج وضعه وحسن قطعه ؟ وأي بيت لا يرقأ دمعه ؟؟ .. »(١) ثم يستطرد فيسألهم نحو خمسين سؤالاً كلها من هذا الطراز العجيب ، ويمهلهم للجواب عنها أياماً مما يدلّ على تكرار مثل هذه الاجتماعات ، وهو لا يمتنع عن الإجابة عن بعضها على سبيل المثال فيقول : « اختاروا من هذه المسائل خمساً لأفسّرها واجتهدوا في الباقي أياما ، فلعل إناءكم يرشح ولعل خاطركم يسمح ، ثم إن عجزتم فاستأنفوا التلاقي لأفسّر الباقي(٢) . »

ولعل هذا المجلس يعطينا فكرة عن حب القوم للمجالس الأدبية والتنافس في حلّ المعمّيات الشعرية ، مما يحتاج إلى اطلاع واسع وحفظ كثير .

وكذلك الأمر في المقامة العراقية إذ يسأل عيسى بن هشـام أبا الفتح الاسكندري : « بأي العلوم تتحلّى ؟ فقال : لي في كل كنانة سهم ، فأيها تحسن ؟ قلت : الشعر ، فقال : هل قالت العرب بيتاً لا يمكن حلّه(٣) . . ؟ » ويتابع أسئلته وهي كلها من هذا النوع .

(١) المقامة الشعرية : ٢٣٠ .
(٢) المقامة الشعرية : ٢٣٣ .
(٣) المقامة العراقية : ١٥٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن المقامات الأدبية ما يتصل بآراء الهمذاني في الأدب والنقد كأن يوضح لنا رأيه في امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وجرير والفرزدق والجاحظ وابن المقفع ... وذلك من خلال بعض المحاورات التي دارت في مجالس أدبية وصفتها المقامات .

رأي الهمذاني في امرئ القيس : يسأل عيسى بن هشام صاحبه أبا الفتح في المقامة القريضية فيقول : ما تقول في امرئ القيس ؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير في وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها . ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغبا ، ففضل من تفتق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بَنانه .

النابغة : قلنا : فما تقول في النابغة ؟ قال : يثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ويعتذر إذا رهب . ولا يرمي إلا صائبا .

زهير : قلنا : فما تقول في زهير ؟ قال : يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه .

طرفة : قلنا : فما تقول في طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافي ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه .

جرير والفرزدق : قلنا : فما تقول في جرير والفرزدق ؟ وأيهما أسبق ؟ فقال : جرير أرق شعراً وأغزر غزرا ، والفرزدق أمتن صخراً وأكثر فخرا ، وجرير أوجع هجواً وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر روماً وأكرم قوما . وجرير إذا نسب أشجى وإذا ثلب أروى وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أجزى وإذا احتقر أزرى وإذا وصف أوفى . »[1]

(١) المقامة القريضية : ١٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

القدماء والمحدثون : وينتقل الهمذاني بعد ذلك إلى الموضوع الذي طالما تناوله الكتّاب وتباينت فيه الآراء ، فيسأل على لسان ابن هشام قائلاً « قلنا : فما تقول في المحدّثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً وأكثر من المعاني حظا ، والمتأخرون ألطف صنعاً وأرق نسجا ...[1]

الفرزدق وذو الرمّة : ويجري الهمذاني ، في مقامة أخرى ، مقابلة بين الفرزدق وذي الرمة ، ويحدثنا من خلالها عن احتقار الفرزدق لغيلان وازدرائه لشعره واستصغاره لشأنه ، كما يحدثنا فيها أيضاً عن احتقار الفرزدق وجرير للصلتان العبدي والبعيث فيقول في المقامة الغيلانية : « بينا نحن بجرجان في مجتمع نتحدث ، وممنا يومئذ رجل العرب حفظاً ورواية وهو عصمة بن بدر الفزاريّ ، فأفضى بنا الكلام إلى ذكر من أعرض عن خصمه حلماً ، ومن أعرض عن خصمه احتقاراً ، حتى ذكرنا الصلتان العبدي والبعيث وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما ، فقال عصمة : سأحدثكم بما شاهدته عيني ولا أحدثكم عن غيري [2] . . . » ويحدثهم أنه اجتمع بغيلان في إحدى سفراته ، وبينما هما في الطريق يستريحان يشعر ذو الرمة أن الفرزدق منه على مدى الصوت فيرفع صوته بهجائه حتى يبلغ قوله :

تعاف الأكارم إصهارَهم فكلّ أيامهمُ عانس

فلما بلغ هذا البيت تنبّه ذلك النائم – يعني الفرزدق — وجعل يمسح عينيه ويقول : أذو الرميمة يمنعني النوم بشعر غير مثقّف ولا سائر ؟ فقلت : يا غيلان من هذا ؟ فقال : الفرزدق ، وحمي ذو الرمة فقال :

وأما مجاشع الأرذلون فلم يسق منبتَهم راجس
سيمقلهم عنّ مساعي الكرام عقالٌ ويحبسهم حابس

(١) المقامة القريضية : ١٢ .
(٢) المقامة الغيلانية : ٤٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فقلت : الآن يشرق فيثور ويعم هذا قبيلته بالهجاء ، فوالله ما زاد الفرزدق على أن قال : قبحاً لك ياذا الرميمة أتعرض لمثلي بمقال منتحل ، ثم عاد في نومه كأن لم يسمع شيئاً ، وسار ذو الرمة وسرت معه وإني لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا (١) .. »

الجاحظ وابن المقفع : يخص الهمذاني الجاحظ بمقامة يسميها « المقامة الجاحظية » يتعرّض فيها للجاحظ ويحاول أن ينال منه ، وكأن تنافس أهل الصناعة قد أوغر صدره عليه ، وكأن الهمذاني يرى في الشعر الذي نظمه ميزة يمتاز بها عن الجاحظ الذي انفرد بالنثر دون الشعر !!

يرد ذكر ابن المقفع والجاحظ في إحدى الولائم ، ويقص الهمذاني ذلك بلسان راويته فيقول « ونحن في الحديث نجري معه حتى وقف بنا على ذكر الجاحظ وخطابته ، وابن المقفع ودرايته . ووافق أول الحديث آخر الخوان ، وزلنا عن ذلك المكان . فقال الرجل : أين أنتم من الحديث الذي كنتم فيه ، فأخذنا في وصف الجاحظ ولسَنه وحسن سَنَنه في الفصاحة وشننه فيما عرفناه . فقال : يا قوم لكل عمل رجال ولكل مقام مقال ، ولكل دار سكان ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم . فكلّ كشر له عن ناب الإنكار وأشمّ بأنف الإكبار ، وضحكت له لأجلب ما عنده وقلت : أفدنا وزدنا ، فقال : إن الجاحظ في أحد شقّي البلاغة يقطف وفي الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصّر نظمه عن نثره ، ولم يُزرِ كلامه بشعره . فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا : لا ، قال : فهلمّوا إلى كلامه فهو بعيد الإشارات قليل الاستعارات قريب العبارات ، مُنقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة ؟ قلنا : لا »(٢) .

(١) المقامة الفيلانية : ٤٧ .
(٢) المقامة الجاحظية : ٧٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وغير خاف أن الهمذاني يهاجم الجاحظ بأسلوب المدافع عنه ، وأنه يريد الطعن على أسلوبه في النثر بعد أن جرّده من الفضل في الشعر .. وما أحسب وراء ذلك إلا اعتقاد الهمذاني بأن « لكل زمان جاحظاً » كما قال (١) .

تحصيل العلم : ويحدثنا بديع الزمان عن رأيه في اكتساب العلم ووسيلة تحصيله فيقول « طلبته فوجدته بعيد المرام ، لا يصطاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى في المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ولا يستعار من الكرام ، فتوسلت إليه بافتراش المدر واستناد الحجر ، وردّ الضجر وركوب الخطر ، وإدمان السهر واصطحاب السفر وكثرة النظر (٢) .. » ويستطرد معدّداً ما يعتقده من وسائل تحصيل العلم من بحث وتحقيق ودراسة وتدقيق ...

على أننا لن نتعرّض لآراء بديع الزمان في الأدب والنقد وما إليها ؛ فهذا كله إنما جاء في سياق الكلام على مجالس القوم ومناظراتهم الأدبية ، ولكننا نرى أن بديع الزمان نجح في التعبير عن آرائه ، أيّاً كانت ، فجاءت صريحة واضحة جريئة دالّة على تذوّق صاحبها وسعة اطلاعه ، هذا بغضّ النظر عن قيمتها الأدبية ومدى انطباقها على الواقع أو موافقتها للأحكام التي أطلقها الأدباء والنقاد في تلك المسائل .

المناظرات والجدل المذهبيّ : لم يقف الهمذاني في مقاماته عند حدود المناظرات الأدبية ، ولم يكتف بالمناظرات التي كان الأدب أو الأدباء موضوعاً لها وإنما تجاوزها إلى المناظرات الفكرية الجدلية التي تتخذ من العقائد والمذاهب موضوعاً تدور حوله ؛ فعرض علينا في مقاماته طائفة طريفة من تلك

(١) لم يترك شارح المقامات الأستاذ الشيخ محمد عبده هذا الرأي بدون تعليق ، وإنما عقب عليه وسفّه رأي الهمذاني فيه . المقامات حاشية الصفحة : ٨١ .
(٢) المقامات العلمية : ٢١٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المناظرات ؛ إنه يردّ في المقامة المارستانية مثلاً على المعتزلة ، ويسفّه آراءهم ولكنْ على لسان مجنون في « المارستان » ، فكانت مقامة ذات حدّين ؛ ينطق المجنون فيها بالحكمة ، مخاطباً ـ وهو الذي لا عقل له ـ طائفة تزعم أن العقل إمامها وقائدها .. !!

مع المعتزلة : يقول مجنون في « المارستان » بعد أن عرف أن أمامه عيسى بن هشام وأبا داود العسكري أحد متكلمي المعتزلة : « شاهت الوجوه وأهلها ، إن الخيرة لله لا لعبده ، والأمور بيد الله لا بيده ، وأنتم يامجوس هذه الأمة تعيشون جبرا وتموتون صبرا وتساقون إلى المقدور قهرا . و ﴿ لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ (١) أفلا تنصفون إن كان الأمر كما تصفون ؟ وتقولون : خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون : خالق الهلك هالك ؟ أتعلمون يقيناً أنكم أخبث من إبليس دينا ، ﴿ قال : رب بما أغويتني ﴾ (٢) ، فأقرّ وأنكرتم ، وآمن وكفرتم . وتقولون : خُيِّر فاختار ! وكلاّ فإن المختار لا يعج بطنه . . . يا أعداء الكتاب والحديث بم تطيّرون أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ إنما مَرَقت مارقةٌ فكانوا خَبَث الحديث ، ثم مرقتم منها فأنتم خَبَث الخبيث ، يا مخانيث الخوارج . » (٣)

ولا يكتفي الهمذاني بكل هذا الإزراء ، وإنما يشير بخبث إلى حرمة الزواج منهم ، وهو يترك المجنون ينصح بذلك فيقول : « وأنت يابن هشام تؤمن ببعض وتكفر ببعض ؛ سمعت أنك افترشت منهم شيطانة ، ألم ينهك الله عـــزّ وجلّ أن تتخذ منهم بطـانة ، ويلك هلاّ تخيّرت لنطفتك ونظرت لعقبك . . . » (٤)

---

(١) سورة آل عمران ٣ : ١٥٤ .
(٢) آية تتمتها (لأزيّننّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين . إلا عبادك المخلصين) الحجر ١٥ : ٣٩ ـ ٤٠ .
(٣) المقامة المارستانية : ١٢٧ .
(٤) المقامة المارستانية : ١٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكذلك نجد في المقامة الوعظية وغيرها كثيراً من الأحاديث التي عقدها بديع الزمان بلسان ابن هشام مما يتصل بالردّ على الملحدين ومنكري البعث .

وبعد ، فهذه طائفة من مجالس القوم الأدبية والجدلية ، وأحاديثهم ومناظراتهم وبعض آرائهم في الأدب والنقد ، قدمها لنا الهمذاني ، وقد ضمنها آراءه في مسائل لاشك أنها كانت مدار البحث في عصره .

أخبار القصة والقصاصين : للقصة أثر عظيم في التوجيه ، ولأصحابها ذكر قديم في التاريخ . وقد كان لبعض القصاصين منازل رفيعة وأخبار عجيبة ، وهم منذ القديم يحضرون مجالس الخلفاء والوزراء ؛ يقصّون ويسلّون ويعظون ؛ فكان منهم ندمان ، ومنهم قضاة ، وكان منهم في صفوف العامة موجّهون ومعلّمون ومخلصون ومتكسّبون .

وذكر المقريزي أن القصص قصصان : قصص العامة ، وقصص الخاصة ، وذكر أن القاص في النوع الأول يجتمع الناس إليه فيعظهم ويذكّرهم ، وأما القاصّ في النوع الثاني فيعيّنه الحاكم وربما كان القاضي نفسه .(١)

ونقل آدم متز أن القُصّاص في القرن الرابع نزلوا إلى غمار العامة ، وصاروا يقصون لهم القصص الدينية والأساطير والنوادر في المساجد والطرق ، وينالون منهم مالاً كثيرا ، وكان الرجال والنساء يجتمعون حول القاص فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدّون أيديهم ، وكان العامة يحبون القصاص حباً شديداً . ويحكى عن الطبري أنه أنكر على قاصٍّ في بغداد فرمى العامة باب داره بالحجارة حتى سدّوه وصعب الخروج منه . وكان القصاص من أكبر مثيري الفتن القديمة بين أهل السنة والشيعة . ويضع الهمذاني القصاص ، في المقامة الساسانية ، بين طبقة المشعوذين المخرقين من بني ساسان .(٢)

(١) الخطط والآثار ٢ : ٢٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ٢ : ٧٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما نقله آدم متز يدل على نزول القصاص إلى العامة ، وأما رأيه في وضع الهمذاني للقصاص بين المشعوذين المخرقين فغريب ، إذ ليس في المقامة الساسانية التي أشار إليها ذكر للقصة ولا للقصاص ، ولست أدري كيف وهم في ذلك !

ويبدو أن القصاص كثروا كثرة جعلت الصالح القليل منهم يضيع في زحمة الفاسد الكثير ، فلم نعد نستطيع أن نميز بيسر بين الواعظ الصادق والقاص المتكسّب حتى اضطر بعض العلماء إلى تنبيه الناس على ضرورة التمييز بين الصالحين وغيرهم ، وهذا ما فعله السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٥ هـ حين ذكر القصاص وفصّل في بيان الصفات المستحسنة فيهم .(١)

أما القصة من الوجهة الفنية فإن الهمذاني نفسه ـ بما كتب من مقامات ـ مثال صالح لما وصلت إليه القصة من مستوى فنيّ . والهمذاني في مجال القصة إنما يحوز إعجابنا بما حلّل من نفسيات وصوّر من شخصيات ، بل بما وصلت إليه بعض مقاماته من مستوىً فني جيّد .

يقول الأستاذ مارون عبود « وتمرّ بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية تنوء عن مضارعتها اليوم قصة في تحليل الشخصيات ودرس النّفسيات .... والمقامة الأسدية والبشرية تمدّان من الأقاصيص ذوات العقد ، وإن كان إلى جانب هذه قصص كالمقامة الأزربيجانية التي تبدو كأنها كتبت بلا استعداد »(٢) ويجيب الأستاذ عن سؤال كثيراً ما يرد ، وهو : هل المقامة قصة ؟ فيقول : « نعم ، إنها قصة ، والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك أنت وهندام جدّك رحمه الله . . »(٣) .

(يتبع) الدكتور عادل المبارك

(١) الحضارة الاسلامية : ٧٨ نقلاً عن « بيان العارفين على هامش تنبيه الغافلين » : ٢٥ .
(٢) بديع الزمان : ٣٦ .
(٣) بديع الزمان : ٣٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net